الإسلام والإستشراق قراءة في فكر إدوارد سعيد

Islam and Orientalism
Reading in Edward Said's Thought

د. لكحل فيصل*
جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر
Lakehal.faissal@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/09/29 تاريخ القبول: 2020/10/19

الملخص

يعتبر المفكر والناقد الأمريكي ذو الأصل العربي إدوارد سعيد (1935–2003) من بين أهم المفكرين الذين اهتموا بموضوع الإستشراق، وقد كانت الإشكالية الموجهة لتفكيره في الموضوع هي أن أغلب الدراسات الإستشراقية تعبر عن موقف الغرب من الإسلام والعالم الإسلامي، لأن الإسلام هو الديانة الرسمية التي استمرت في الشرق كما شكل الإسلام من خلال امتداده الجغرافي والسياسي عامل تهديد بالنسبة للغرب المسيحي ومن ثم كان لابد من مواجهته بطرق وأساليب مختلفة بدأت أول الأمر في الجانب المعرفي من خلال توظيف الدراسات الإستشراقية كخطاب مهيمن على الثقافة في النصوص الأدبية والثقافية والفلسفية ثم استحالت إلى سياسة ممارسة في الاستعمار والإمبريالية. يحاول المقال التساؤل حول مشروعية الأحكام والنتائج التي خلص إليها الخطاب الإستشراقي في دراسته للإسلام والعالم الإسلامي من وجهة نظر إدوارد سعيد.

الكلمات المفتاحية:

الإستشراق؛ الإسلام؛ الثقافة؛ التاريخ؛ الديمقراطية.

Abstract :

The American thinker and critic Edward Said (1935-2003) is one of the most important thinkers who have been interested in orientalism,The idea for his thinking on the subject was that most oriental studies reflect the West's position on Islam and the Islamic world, Because Islam is the religion that continued in the East. Islam, through its geographical and political extension, has been a threat to the Christian Europe, and it has had to be confronted in different ways, The first began in the knowledge through the use of oriental studies as a dominant discourse on culture in the literary, cultural and philosophical texts, and then became a policy of practice in colonialism and imperialism, The essay attempts to question the value of the judgments and conclusions of the Orientalist discourse in his study of Islam and the Islamic world, from the point of view of Edward Said.

*- المؤلف المرسل: د. لكحل فيصل، الإيميل: lakehal.faissal@gmail.com

key words :
Orientalism; Islam; culture ; history; democracy .

مقدمة:

يبدو أن العلاقة المتوترة بين الشرق والغرب أو بين الفكر الإسلامي والغرب المسيحي هي التي فرضت على الفكر الغربي إعادة معرفة الشرق والسيطرة عليه واستعماره ثم إعادة تشكيله بمنطق جديد يختلف عن التراث والتاريخ الشرقي القديم عن طريق الباحثين والمؤرخين والمثقفين الذين أوكلت لهم مهمة بناء ثقافة جديدة حول العالم الشرقي ومن خلال الدراسات الأكاديمية والثقافية وفرض منطق الهيمنة والسيطرة في المجال الاقتصادي والسياسي، وهكذا شكل الإسلام موضوعا لدراسة الشرق لاسيما أن الإسلام هو الديانة السماوية الوحيدة التي استمرت بشكل كبير، ولذلك يعتبر الغرب المسيحي أن انتشار وتوسع الإسلام يشكل خطرا على حضارته، لأن هناك جانبا كبيرا من تاريخ الإستشراق يحمل في داخله طابع الموقف الأوروبي إزاء الإسلام وهذا الجانب البالغ الحساسية من الإستشراق هو الذي شكل محور اهتمام إدوارد سعيد وقد كان هدفه من دراسة هذه الأوضاع والمتغيرات هو بيان علاقتها بالإستشراق.

ولكن ما هي الآليات والخلفيات التي تحكم الخطاب الإستشراقي؟ وما هي تداعياتها وامتداداتها على العالم الإسلامي في منظور إدوارد سعيد؟

1- الإستشراق التصور والمفهوم:

لقد كان لفظ المستشرق في القرن التاسع عشر يعني الباحث المتخصص في الدراسات الصينية أو الإسلامية أو اللغات الهندية الأوروبية كما نجده عند كل من ريتشارد بيرتون وإدوارد لين وفريديريش شليجل، ويرجع ظهور الاستشراق في القرن التاسع عشر كحركة فنية إلى الاضطرابات السياسية التي عاشها المشرق طوال القرن، مع التوسع في الاستعمار الأوروبي والانهيار البطيء للإمبراطورية العثمانية.

وهكذا يمكن القول أن الإستشراق ظاهرة علمية حديثة لها أسبابها السياسية، وهو هيمنة الغرب الحديث على العالم الشرقي من خلال انتشار الاستعمار الأوروبي الغربي الحديث في معظم أنحاء العالم الشرقي، لأن التصور الغربي عن "الشرق ليس فقط الجار المباشر لأوروبا، بل هو أيضا حيث أنشأت أوروبا أكبر وأغنى وأقدمها مستعمراته ومصدر حضاراته ولغاته وهو منافسه الثقافي" (Monia ayachi, 2015 ,108).

لكن هناك من يرى أن الإستشراق "حركة جمالية غربية، موضوعه الشرق وقد أخذت هذه الحركة تمثيلات واقعية في بعض الأحيان وهمية تخيلية في بعض الأحيان الأخرى، وقد بدأت هذه الحركة في الغرب في القرن التاسع عشر نتيجة اهتمام الفنانين الغربيين بالشرق" (Clémentine Kruse, 2018)، وبالتالي أصبح الشرق قضية مركزية في سياسات القوى الأوروبية الكبرى نتيجة التوسع الاستعماري إلى مناطق غير معروفة سابقًا. وقد رافق الجنرال بونابرت في حملته على مصر (1798–1801) العديد من الفنانين والدارسين الكبار، ولكن هذه الحملة على مصر ليست حملة عسكرية بسيطة ولكنها في حقيقتها حملة ثقافية وعلمية (Clémentine Kruse, 2018).

إن الإستشراق من حيث مفهومه ومدلوله الواقعي لا يعبر فقط عن الدراسات العلمية والأكاديمية التي وصل إليها الغربيون في رحلاتهم وأسفارهم إلى الشرق، لأن البعد العلمي والمعرفي الذي يمثل ظاهر الإستشراق يحمل في داخله نوع من المعرفة المبطنة بالقوة والهيمنة والاستعلاء الفكري للغرب كما أن الشعور بالقوة المعرفية والثقافية هو الذي جعل الغرب يسعى إلى تجاوز الحدود الجغرافية له واستعمار الدول الأخرى من أجل تكريس مبدأ العنصرية الغربية. وهذا ما جعل الغرب يمتلك زمام القوة والسلطة التي تخول له دراسة الشرق ومن ثم التحكم فيه وامتلاكه كما تشهد على ذلك الحملات الاستعمارية الغربية الحديثة على معظم دول الشرق، إن الإستشراق من هذا المنظور هو "إسقاط ثقافي لعقيدة سياسية على الشرق، إنه باختصار تنسيب ثقافة ضعيفة من قبل ثقافة أقوى، إنه تحويل للثقافة الضعيفة واحتلال لها من قبل الثقافة الأقوى" (فخري صالح، 2004، ص116)، يعبر الإستشراق والحالة هذه عن هيمنة من نوع خاص فهو سلطة سياسية وقوة ثقافية هدفها إحكام السيطرة على العالم الشرقي من طرف الغرب وإخضاعه له، وجعله في موقع التبعية وتعود أصول هذه الهمينة ومحاولة بسط النفوذ السياسي والثقافي والحضاري على العالم الشرقي إلى التقارب بين فرنسا وبريطانيا في الهيمنة على الشرق الهند والشام وما ذكر من أراضي الشرق في الكتاب المقدس، وقد "كان الشرق ينحصر معناه الفعلي حتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر في الهند والأراضي والمذكورة في الكتاب المقدس ومنذ بداية القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت لفرنسا وبريطانيا السيطرة على الشرق والإستشراق" (إدوارد سعيد، 2006، ص47).

إن التصور الحديث عن الشرق ابتداء من القرن التاسع عشر أخذ ليشمل بلدان الشرق المختلفة بالإضافة إلى دول العالم الثالث التي تشمل الثقافات العربية منها والفارسية والهندية وبلاد الشام ومعظم دول شرق آسيا، وهكذا توسع الغرب في فهم الشرق جغرافيا، حيث أصبح الشرق يضم بالإضافة إلى الشرق الأدنى (البلدان الإسلامية) الشرق الأقصى (الأسيوي) الهند والصين واليابان وسومر والبوذية والزرادشتية وغيرها، ولكن حسب ما يمكن استنتاجه من تحليلات إدوارد سعيد أن موضوع اهتمامه هو الشرق الأدنى أو الإسلام.

ولكن هل يعتبر الإسلام هو الممثل الرسمي للشرق؟ إن إدوارد سعيد لا يعتبر الإسلام هو الممثل الرسمي للشرق، ولكنه يعتبره الديانة الأكثر تأثيرا وانتشارا واستمرار في الشرق، ولذلك كانت الدراسات الإستشراقية في أول الأمر تتخذ من النص الديني الإسلامي محورا لإهتمامتها بالعالم الشرقي.

2- دافع الكتابة في موضوع الإستشراق:

إن الثقافة التي غذت فكر إدوارد سعيد ثقافة غربية، ولكنها لم تكن الدافع المباشر لاهتمامه بموضوع الإستشراق، بل أن الشعور بالانتماء إلى العالم الشرقي هو الذي حفزه على البحث والكتابة لاسيما وأن نشأته وأصوله الأولى تعود إلى الشرق وفي هذا يقول "ومعظم رصيدي الشخصي الذي أستثمره في هذه الدراسة مستمد من وعيي بأنني شرقي باعتبار أنني نشأت طفلا في مستعمرتين بريطانيتين، أما تعليمي في هاتين المستعمرتين (فلسطين ومصر) وفي الولايات المتحدة، فقد كان كله غربيا، ومع ذلك فإن ذلك الوعي المبكر العميق ظل قائما. ولقد كانت دراستي للإستشراق، من عدة زوايا، محاولة لإعداد قائمة بالآثار التي خلفتها في نفسي، باعتباري ذاتا شرقية، تلك الثقافة التي كانت سيطرتها عاملا قويا في حياة جميع الشرقيين، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى أن أجعل الشرق الإسلامي محور الاهتمام" (إدوارد سعيد، 2006، ص76). ويمكن القول أن دراسة إدوارد سعيد لموضوع الإستشراق لم تكن من منطلق البعد النظري التاريخي، بل أنها مستمدة من تجربة ذاتية عايشها وشهد عليها، لأن العلاقة بين الشرق والغرب كانت في تلك الفترة ذات توجهات جديدة سيطرت عليها النظرة الغربية من خلال الاستعمار الغربي الحديث والهيمنة السياسية والاقتصادية التي فرضها على معظم دول العالم الشرقي.

ويذكر كذلك من بين الدوافع التي دفعته إلى الكتابة في موضوع الإستشراق أن "حياة الفلسطيني العربي في الغرب، خصوصا في أمريكا، مثبطة للعزم، إذ يشيع هنا اتفاق في الرأي ويكاد يكون جماعيا على أنه غير موجود سياسيا، فإذا سمح البعض له بالوجود اعتبروه إما مصدر إزعاج أو شخصا شرقيا وحسب فشبكة العنصرية والقوالب النمطية الثقافية والإمبريالية السياسية والإيديولوجيا السالبة لإنسانية الإنسان، وهي الشبكة التي تحيط بالعربي أو بالمسلم شبكة بالغة القوة" (إدوارد سعيد، 2006، ص78)، إن الدافع إلى الكتابة في موضوع الإستشراق هو ما وجده إدوارد سعيد من النظرة الأحادية الجانب التي تقوم على منطق الإقصاء الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي في الغرب الذي عاش فيه، لأن الغربي ينظر إلى الشرقي باعتباره الآخر المختلف عنه وبالتالي فهناك نوع من النظرة الندية اتجاه كل من ينتمي إلى الشرق باعتباره ذو ثقافة مغايرة وذو عادات وتقاليد وأعراف مختلفة عن الثقافة الغربية.

3- الفكر الإسلامي ضمن المنظور الاستشراقي:

لقد مثل الإسلام بالنسبة للغرب موضوعا لدراسة الشرق لاسيما أن الإسلام هو الديانة السماوية الوحيدة التي استمرت بشكل كبير، ولذلك يعتبر الغرب المسيحي أن انتشار وتوسع الإسلام يشكل خطرا على حضارته، "فلا يمكن القول عن أي دين أو تجمعات ثقافية أنها تمثل تهديدا للحضارة الغربية بمثل التوكيد نفسه الذي يعتمد الآن عند الحديث عن الإسلام" (إدوارد سعيد- برنالد لويس، 1994، ص69)، إن ردة فعل الخطاب الإستشراقي تظهر في أكثر من موضع وموقفه واضح من الإسلام والانتشار المتزايد له و"لطالما شعرت أوروبا بأن الإسلام على حافة أبوابها، إن صح التعبير. ولا تنس أن الإسلام هو الثقافة غير الأوروبية الوحيدة التي لم تنهزم كليا أبدا. إنه متاخم لليهودية والمسيحية، ويشاطرها الإرث التوحيدي" (إدوارد سعيد، 2008، ص420)، كما أن العالم الإسلامي يعتبر خزان للمعارف والفلسفات والعلوم القديمة الشرقية منها واليونانية وهو الديانة السماوية التي أخذت عن الديانات السماوية السابقة عنها. ولكن هو في الوقت نفسه الديانة السماوية الأخيرة التي ألغت تلك الديانات، بل وحاربت الفهم الخاطئ لها وللمعتقدين بها الذين حرفوا وتصرفوا في مضمونها، "ولاشك أن الإسلام كان يمثل مصدر حقيقي من زوايا عديدة فموقعه مجاور وقريب من المسيحية جغرافيا وثقافيا إلى حد مقلق فلقد انتفع بالتقاليد اليهودية واليونانية وأبدع فأتي بالجديد فيما أخذه من المسيحية، بل لم يقتصر الأمر على

ذلك إذ إن الأراضي الإسلامية تجاور بل تقع في بعضها الأماكن المذكورة في الكتاب المقدس. أضف إلى ذلك أن قلب الدولة الإسلامية كان دائما يقع في أقرب المواقع إلى أوروبا أو ما يسمى بالشرق الأدني" (إدوارد سعيد، 2006، ص143)، كما أن الفتوحات الإسلامية في الجانب العسكري والسياسي وامتداداته الجغرافية كانت بمثابة عامل تهديد بالنسبة للغرب المسيحي الأوروبي، ومن ثم كان لابد من مواجهته بطرق وأساليب مختلفة بدأت أول الأمر في الجانب الفضولي المعرفي، ثم تحولت إلى نوع من القوة والسيطرة العسكرية والسياسية ولهذا كان "الجانب السياسي والإيديولوجي هو السائد في الدراسات الإستشراقية" (Hamza Asshidi, 2015, 83 p) ويظهر توظيف هذا الجانب في مواجهة الإسلام والوقوف في وجه الامتداد الثقافي والحضاري له، فقد كان الإسلام في السابق يسيطر على الشرق والغرب في أوج مجده السياسي والعسكري من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر ثم انتقل مركز القوة إلى الغرب ويبدو الآن ونحن في أواخر القرن العشرين أنه يتجه من جديد نحو الشرق.

في كتاب لإدوارد سعيد ألفه في طبعته الأولى سنة 1981 بعنوان (تغطية الإسلام) يبحث في كيفية تحكم وسائل الإعلام في العالم الثالث؟ وقد كان تساؤله هذا ناتج عن ما وصل إليه في موقفه من الإستشراق، أي نقد ما بعد الاستعمار (postcolonial criticisme)، يقول إدوارد سعيد "في الولايات المتحدة هناك ظاهرة مشابهة. لديك كارل كامل مما يسمى بالخبراء في الوقت الحاضر. وأنا أسميهم المستشرقين الذين تكمن مهمتهم في أن يقيموا عبر خبرتهم بالعالم الإسلامي والعربي إلى وسائل الإعلام والحكومة ما أسميه الاهتمام المعادي بالعالم الإسلامي" (إدوارد سعيد، 1998، ص25)، لأن الدارسات التي يقوم بها الغرب عن الإسلام وما ينشره الخبراء الغربيين في مختلف العلوم والتخصصات المعرفية يظهر العداء اتجاه العالم الإسلامي فهو بالنسبة لهم الممثل الرسمي للعالم الشرقي هذا العالم الذي لم يبقى منه من الديانات السابقة سوى الديانة الإسلامية، وهكذا انتهي الخطاب الغربي الإستشراقي حول الإسلام إلى رسم صورة مخيفة عنه وتسويق فكرة خاطئة حوله، "إن من السهل إقرار تعميمات متوحشة حول الإسلام. كل ما عليك فعله هو أن تقرأ أي طبعة من طبعات نيو ريبابليك(New Republic) وسوف ترى الإسلام يتم ربطه بالشر المتطرف والقول بأن للعرب ثقافة فاسدة وهكذا. إن هذه تعميمات لا يمكن لها أن توضع عمليا إزاء أي دين آخر أو مجموعة إثنية في العالم اليوم، في الولايات المتحدة حيث هناك حساسية كبيرة" (إدوارد سعيد، 2007، ص114)، ينتقل الخطاب الإستشراقي من

موضوع الشرق إلى موضوع الإسلام، من خلال إصدار أحكام عامة وتوسيع دائرة الخطاب ليشمل الظاهرة الإسلامية، فبعد أن كذب وشكك المستشرقون القدماء في النص الديني الإسلامي (القرآن والحديث) يعمل الخبراء الغربيون اليوم على ضرب القيم الإسلامية ووصف الإسلام بالشر الآتي إلى العالم، والمسلمين بالشعوب البدائية المتوحشة التي لا ترقى إلى مستوى الحضارة الإنسانية و"قد أدى استعمال مصطلح الإسلام إلى السماح بقدر واضح من الأخطاء وبأقوال تنم عن التعبير عن التحيز العرقي الشديد، والكراهية الثقافية بل والعنصرية والعداء العميق الذي يتذبذب صعودا وهبوطا" (إدوارد سعيد، 2005، ص30).

إن المعتقد المسيحي الغربي هو الذي يوجه الخطاب الإستشراقي ويدفعه إلى نشر اللاهوت المسيحي في مواجهة الديانة الإسلامية في الشرق، وقد "كان من نتيجة هيمنة الغرب على الشرق نقل مشاكل اللاهوت الكنسي الغربي إلى الإسلام، وطرح الشكوك على الصفة الإلهية والوحي القرآني وعلى مصداقية السنة النبوية ويرون أن الإسلام بدعة شرقية وتمثيلاً عربياً لليهودية والمسيحية. كما نظروا إلى الشريعة الإسلامية كنسخة عربية من القانون الروماني) (2013 ,Mohammad Imara)، إن رفض الديانة الإسلامية كآخر ديانة إلى البشر كافة هو ما جعل الغرب ينقل محل الصراع بين الديانات اليهودية والمسيحية والديانات الشرقية القديمة إلى العالم الشرقي الذي يحتكم إلى الديانة الإسلامية، لأن إحلال الصراع في الشرق كفيل بأن يثير الشكوك حول الديانة الإسلامية وحول النصوص الدينية التي تضمنتها وفي حقيقة الأمر بدأ الإستشراق الكلاسيكي بالشك في تعاليم الدين الإسلامي والنص القرآني والسنة النبوية وفي نسبتها إلى أصولها الحقيقية، كما كان من نتائجها "المبالغة في إظهار أهمية الفوارق والمذاهب الهامشية والمفردة والمفرطة. والغرض الرئيسي من هذه المبالغة هو جعل المسلمين يظهرون كمجتمع مقسم إلى مجموعات متفرقة وأقليات هامشية. هذا على حساب الوحدة التي يمثلها أهل السنة والجماعة التي تجسد 90٪ من المسلمين في تاريخ الإسلام" (Mohammad Imara, 2013).

إن الشك في الجانب الديني العقدي للإسلام كان مدخلا للإستشراق من أجل بسط نفوذه على الشرق وبالتالي تفكيك الوحدة التي سعى الإسلام كدين إلى توحيدها، وقد كانت الوسيلة التي اتخذها الغرب هو فصل الدين عن الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي في العالم الشرقي، وقد كنت وسيلته "نشر العلمانية الغربية في الدوائر الفكرية والسياسية الإسلامية من أجل القضاء على

المقدسات الإسلامية لإزالة المرجع الديني من حياة المسلمين ولتحضير استيعاب الشرق الإسلامي من قبل الغرب العلماني سياسيا وثقافيا" (Mohammad Imara, 2013).

وهكذا يتشكل الإستشراق في المخيال الغربي بصورة تختلف ربما عن ما هو موجود بشكل فعلي وواقعي في الشرق ذاته نتيجة التباين في الثقافة والمجتمع، لأن الإستشراق كعلم غربي يرتكز على الطابع الروائي الأسطوري الذي يغذي عالم الخيال الغربي، ولكن كما يبين إدوارد سعيد "الإستشراق ليس أسطورة، إنه نظام –أسطورة ذو منطق وخطاب ومؤسسات خاصة به ذات علاقة بالأسطورة. إنه آلة لإنتاج تصريحات حول الشرق، ويمكن دراسته من الناحية التاريخية والمؤسساتية كشكل من أشكال الإمبريالية الأنتروبولوجية" (إدوارد سعيد، 2006، ص 60)، إن نظام الأسطورة يظهر في الخطاب الغربي الذي يبني تصوراته وتمثلاته عن الشرق انطلاقا من ثقافته وديانته هو، فتشريح الظاهرة الإستشراقية لم يكن استجابة للعقل العلمي الغربي الذي أسست له الحداثة الغربية بل هو تعبير عن منطق الثنائية (شرق–غرب) والضدية الحضارية (التخلف–التنمية) التي تنظر إلى الأخر بمنظور المخالف والمختلف الذي لا بد أن يخضع إلى العقل الغربي باعتباره العقل المهيمن في العلم والمعرفة وانطلاقا من إيمانه بالحرية والعدالة وكرامة الإنسان، فقد "عمل الاستشراق وما زال يخدم هيمنة الغرب على الشرق من خلال بناء هذا الأخير باعتباره الآخر الأدنى ومن خلال تقليل صورته الحضارية المتقدمة ومن خلال إعادة تعريف هويات الشرق والغرب عن طريق نظام من التمثيل ثنائي التفرع" (Monia 29 ayachi, 2015 , p)، وهذا ما رسخ في ذهن الشعوب الغربية حول الشرق صورة مزيفة وغير حقيقية تخضع للكثير من التزييف والتحريف من قبل المستشرقين، بل أنها تخضع في الكثير من الأحيان إلى المواقف الذاتية وإلى الأهواء والرغبات التي تمثل الأنا الغربي لا غير و"هذا ما هو مروع فعلا (...) الصورة التمزيقية لتاريخ الشرق، بحيث بات ما تقرأه في الصحافة الغربية الآن حول الإسلام مثلا مبسطا أشد التبسيط ويعطي فكرة خاطئة كليا عن مأتي عام أو ثلاثمائة من الاحتكاك المباشر بين الأوروبيون، والأمريكيين إلى حاد ما من جهة والعرب والمسلمين من جهة أخرى" (إدوارد سعيد، 2008، ص263)، كما ساهمت وسائل الإعلام الغربية برسم صورة مخيفة عن الإسلام وعن تاريخه، لأن الخطاب الإستشراقي نظر إلى التاريخ الإسلام نظرة أحادية الجانب اقتصرت الكشف عن السلبيات وعن الاختلافات التي حصلت بين المسلمين حول أمور الحكم

والسياسة وحول الاختلافات الفقهية والأصولية واتخذت منها سبيلا لتأكيد وجود تناقض في العالم الإسلامي وبالتالي في الإسلام ذاته.

إن المعرفة الإستشراقية هي محاولة تجاوز الذات لمعرفة الأخر (العالم الشرقي) من منطلق الفكرة التي تميز موضوع الدراسة (الشرق) باعتباره الأخر المختلف أو بالنظر إليه على أنه الذات المنفعلة أو الموضوع المنفعل الذي يتلقى ويستقبل كل ما يمكن أن يفرضه الفكر الغربي فهو بهذا يؤسس لفكرة التمييز والتفرقة العنصرية التي تنظر إلى الأخر الغير غربي على أنه مجرد موضوع مسلوب الإرادة والحرية أو أنه مجرد وعاء يتلقى كل ما يأتيه من الغرب، ولهذا يعتبر الخطاب الإستشراقي "الشرق والشرقيين موضوعا للدراسة، ويطبعهما بطابع غيرية معينة –مثل كل ما هو مختلف سواء كان ذاتا أو موضوعا– ولكنها غيرية تشكله ذات طابع جوهري. وسوف يكون موضوع الدراسة المذكور على نحو ما جرت عليه العادة سلبيا لا مشاركة فيه وهو يكتسب ذاتية تاريخية وهو قبل كل شيء غير فاعل مسلوب الاستقلال ومسلوب السيادة بالنسبة لنفسه، وأما الشرق أو الشرقي الذات الوحيدة التي يسمح لها بالدخول في أقصى الحدود فهي الكائن المغترب فلسفيا، بمعنى أنه غير ذاته في علاقته بذاته فالآخرون هم الذين يطرحونه ويفهمونه ويعرفونه ويحركونه" (إدوارد سعيد، 2006، ص157).

إن العالم الشرقي بالنسبة للغرب عالم متخلف ولا يمكنه أن يقود مسيرته الثقافية والحضارية بمفرده ولذلك وجب في نظره إعادة تأهيل هذا العالم من خلال فهمه ودراسته وجعله في موقع التبعية للعالم الغربي معرفيا وسياسيا، وكما يعبر عن ذلك كل من المستشرقين بلفور وكرومر أن "الشرقي غير عقلاني، وفاسد (ضال) ومثل الطفل ومختلف، ومن ثم فإن الأوروبي عقلاني وفاضل وناضج وسوى (...) وهكذا فإن عالم أبناء الشرق قد أصبح مفهوما أو يمكن فهمه وأكتسب هويته لا نتيجة لجهود أبنائه بل نتيجة لسلسلة كاملة من الجهود القائمة على العلم والمعرفة والتي بذلها الغرب لتحديد صورة الشرق" (إدوارد سعيد، 2006، ص97).

وصفوة القول أن الغرب ينظر إلى عالم الشرق على أنه عالم لاعقلاني يكتسب ثقافته من بقايا الأسطورة والمعتقدات والديانات القديمة والغرب وفق الصورة التي رسمها لنفسه هو العالم المتقدم والعقلاني الذي أقام ثقافته وحضارته على منطق العلم الحديث والمعرفة العقلانية، ولهذا يتبنى العالم الغربي الفكرة المسبقة والأحكام القبلية التي ترى في الشرق تحقيق لطموحاته في التوسع الجغرافي والسياسي وتجسيدا لفكرة التميز الغربي عن بقية الشعوب وبالتالي "تصوير الغرب للشرق

كان مبنيا على مصالح السيطرة الإمبراطورية وكان من امتياز السلطة(...) إن غزو الشرق ابتداء من حملة نابليون في نهاية القرن الثامن عشر ومرورا بتوسع بريطانيا وفرنسا نحو الشرق لون التصوير وشكله فعليا كان ذلك بعيدا عن الموضوعية أو العلمية" (إدوارد سعيد، 2008، ص 262)، كما تدل السياسة الاستعمارية للغرب في العصر الحديث على أن أغلب دول العالم الشرقي خضعت إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للهيمنة الاستعمارية التي كانت تعبر عن تجلي من تجليات الخطاب الغربي الذي أسس له الإستشراق حول دول وبلدان العالم الشرقي.

ويمكن القول أن دراسة الغرب المستشرق للذات الشرقية باعتبارها الأخر المختلف عن الذات الغربية تنطلق من مسلمة إعادة تشكيل الشرق في صورة تاريخية جديدة تتحكم في وجوده ومآله وكأنَّ الشرق موضوع مقابل خال من الفعالية والتغير والحركة التاريخية، إضافة إلى النظرة التجزيئية التي تقسم الشرق إلى أعراق وأعراف وأديان، لأن "تقسيمات مثل العربي أو المسلم انقسامات فرعية عن الشرق مشبعة على نحو بالغ بالمعاني وخاضعة بدرجة عالية لتحديد مسبق من قبل التاريخ والدين والسياسة بحيث يتعذر على المرء اليوم أن يستخدمها دون انتباه إلى التوسطات الجدالية الهائلة التي تسيج الموضوعات التي تعنيها تلك التقسيمات" (إدوارد سعيد، 1996، ص38)، إن مثل هذه الانقسامات أمر واقع في كل المجتمعات والثقافات، غير أن الخطاب الإستشراقي يتجاوز الاختلاف المحض والبسيط لهذه الانقسامات وينظر إليها على أنها اختلافات قارة وثابتة ومن ثم يؤسس لفكرة الشرق المتجزئ أو المنقسم الذي يحتاج إلى إعادة فهم وتفسير جديدين من خلال صورة متمثلة ومتصورة له بما هي الأخر المختلف، أو الضد المنافس، لأن "تطور وصيانة كل ثقافة يقتضيان وجود أنا ثان (alterego)، أخرى ومختلفة ومنافسة (...) يتضمن إنشاء متضادات وآخرين تخضع راهنيتهم لعملية تفسير وإعادة تفسير لما تقوم عليه اختلافاتهم عناً نحن. كل عصر وكل مجتمع يعيد خلق آخرين خاصين به. وهوية الذات أو الآخر وهي البعيدة عن أن تكون شيئا ساكنا، هي سيرورة تاريخية واجتماعية وفكرية وسياسية عالية الاشتغال، تجري على هيئة نزاع يتضمن الأفراد والمؤسسات في كل المجتمعات" (إدوارد سعيد، 1996، ص38).

وهكذا فإن القول بوجود أنا غربي خالص أو وجود أنا شرقي خالص إنما هو افتراض قبلي ومسبق، لأن مثل هذه الثنائية الضدية هو ما سمح للفكر الإستشراقي التأسيس لخطاب حول الشرق يتجاوز الشرق ذاته، لأن الشرق المتمثل في ثقافة الغرب ليس إلا الشرق كما يتصوره

الغرب والأمر نفسه بالنسبة للتصور الغربي عن الإسلام، "إن مصطلح الإسلام (...) بالصورة التي يشيع فيها لدى الغربيين لا ينطبق انطباقا واقعيا على صور الحياة البالغة التنوع داخل عالم الإسلام وهو الذي يربو عدد سكانه على ثمانمائة مليون نسمة وتصل مساحة أراضية إلى ملايين الأميال المربعة معظمها في إفريقيا وآسيا" (إدوارد سعيد، 2005، ص29)، بيد أن العالم الإسلامي وعلى الرغم من الوحدة الدينية التي تجمعه إلا أن هناك اختلاف بين مجتمع وأخر، أو بين دولة إسلامية وأخرى في المجتمع وفي العادات والتقاليد والأعراف وفي طبيعة الحكم السياسي، يقول إدوارد سعيد "إن إحدى النقاط التي أعرضها هنا وفي الإستشراق هي أن المصطلح الإسلام كما يستخدم اليوم يبدو وكأنما يدل على شأن واحد بسيط لكنه في الحقيقة وهم وفي بعض أجزائه ودفعة إيديولوجية في بعضه وهو تحديد وتعريف بسيط جدا لدين يعرف بالإسلام في بعضه الأخر" (إدوارد سعيد– برنالد لويس، 1994، ص66)، لكن الإسلام حركة وتغير وصيرورة تاريخية لثقافات وحضارات ومجتمعات وديانات مختلفة.

إن التفرقة بين عالم شرقي وآخر غربي ناتجة عن التصور الجغرافي للمكان وعن التمييز بين العالمين من منطلق تحديد حدود ثقافية وهوياتية تاريخية بين العالمين، ولكن "الخط الفاصل بين الشرق والغرب (...) حقيقة من صنع البشر أسميها الجغرافيا المتخيلة، أكثر من كونه حقيقة طبيعية. لكن ذلك لا يعني القول بأن الانقسام بين الشرق والغرب ثابت لا يتبدل، كما لا يعني أنه خيالي فقط. إنه بالتأكيد يعني وتماشيا مع الجوانب التي يسميها فيكو vico عالم الأمم، أن الشرق والغرب حقيقتان أنتجهما البشر" (إدوارد سعيد، 1996، ص38)، لا يوجد ثوابت مطلقة يمكن على أساس منها التفريق بين الشرق والغرب فكل ما يمكن رصده من هذه الفوارق هو من إنتاج البشر أي أنه تواضع واتفاق بشري وليس حقيقة جامدة وثابتة يمكن إحصاؤها، وتبعا لذلك يجب أن تدرس في مجال تغيرها الاجتماعي والتاريخي، لأن الشرق والغرب مجرد مقولات لا غير ولا يمكنها أن تمثل كيانات جوهرية خالصة كما أن التحديدات الجغرافية بين عالمين لا تقوم إلا على الميتافيزيقا والخيال، فالغرب ينظر إلى الشرق انطلاقا من جغرافية تخيلية حوله أي من منطلق توصيفات كلية وشاملة ومطلقة للإنسان والتاريخ.

إن "مفهوم الشرق نفسه مفهوم مختلق وأن الفكرة التي تقول بوجود مساحات جغرافية يسكنها بشر أصليون يختلفون اختلافا جذريا عن غيرهم ويمكن تحديد هويتهم على أساس الدين أو الثقافة أو الجوهر العنصري المناسب لذلك المكان الجغرافي فكرة مختلف عليها إلى حد كبير" (إدوارد

سعيد، 2006، ص 488)، يرفض إدوارد سعيد الأخذ بالمواقف الحدية التي تبني أفكارها وإيديولوجيتها على التفرقة والتقسيم والمنظور الماهوي للأفكار والمبادئ والقيم، ومن ثم فإن التسميات العرقية والهوياتية والصفات الجوهرية الثابتة لا يمكن أن نعتمدها في فهم علوم الإنسان والمجتمع والتاريخ، لأنها علوم حركية ومتغيرة ولا يمكن حصرها في قوالب جامدة وثابتة، "فبناء أوهام مثل الشرق والغرب ناهيك عن ماهيات عنصرية مثل الأعراق التابعة، والشرقيين والآريين والزنوج، ومن شابههم هي الأمور التي حاولت كتبي محاربتها" (إدوارد سعيد، 1996، ص12). إن هذه التفرقة لا تقوم على أسس علمية محضة، لأنها تهمل الجانب الاجتماعي والتاريخي وغيرها من العوامل التي تتحكم في الجانب الحيوي في حياة الإنسان، وهكذا لا يمكن القول بوجود شرق أو غرب خالص منذ الأزل أو دول شرقية وأخرى غربية أو دول شرقية تحدها حدود جغرافية منذ الأزل، وإنما هذه الصفات والتسميات هي من صنع الإنسان الذي ألصقها بالشعوب والمجتمعات وصنفها إلى أعراق وأعراف وهويات ودول وغيرها، وهنا نجد أن إدوارد سعيد يأخذ بفكرة فلاسفة التاريخ أمثال فيكو (Vico) الذي يقر أن البشر هم الذين يصنعون تاريخهم، أي أن البشر هم الذين يصنعون الدول والمحليات والإثنيات.

لا يمكن للخطاب الإستشراقي أن يجد مبرراته الكافية التي تشرع أحكامه ومواقفه من العالم الإسلامي لأن هذه الأحكام والمواقف ملتبسة لا محالة بالمواقف الإيديولوجية القبلية وبالعداء التاريخي المبطن، و"في ظل الظروف الراهنة حيث لا يعيش الإسلام في سلام مع الغرب ولا يعيش الغرب في سلام معه، بل ولا يعيش كل منهما في سلام مع ذاته، قد يبدو من العبث المبالغ فيه أن نتساءل عما إذا كان أبناء ثقافة معينة يستطيعون أن يحيطوا حقا بمعرفة الثقافات الأخرى" (إدوارد سعيد، 2005، ص274) ومادام أن العلاقة بين الإسلام والغرب مشحونة بالتوتر من جميع الجهات فلا يمكن القول أن الخطاب الذي يؤسسه كل منها عن الأخر يمثل حقيقة علمية موضوعية.

فقد كانت نتيجة "النمو الهائل الذي تنامته اختصاصات الأساتذة الجامعيين في الشؤون الشرقية في طول أوروبا وعرضها وتفريخ الكتب عن الشرق (إذ عن الشرق الأدنى وحده كان التقدير صدور 60000 كتابا بين عام 1850 وعام 1950)، وانبثاق الجمعيات المهتمة بالشرق وتكاثر رصيد الأموال لاكتشاف الشرق والجمعيات الجغرافية وفي النهاية خلق بيروقراطية استعمارية هائلة ودوائر حكومية ومرافق بحوث" (إدوارد سعيد، 2000، ص273).

يبدو أن هناك ارتباط بين البعد الأكاديمي العلمي للإستشراق والبعد الاستعماري والسياسي له، وهذا ما خول للساسة والقائمين على دول العالم الغربي استغلال النتائج التي وصل إليها خبراء الإستشراق من أجل إحكام السيطرة والنفوذ السياسي والتبعية الاقتصادية على دول العالم الإسلامي، لأن "التغطية المعتمدة للإسلام التي نجدها في الدوائر الأكاديمية ترتبط بما نجده في الحكومة وفي أجهزة الإعلام بروابط متداخلة وإنها أشد انتشارا وأشد فيما يبدو إقناعا ونفوذا في الغرب عن أي تغطية أو تفسير آخر ومن الممكن أن يعزى نجاح هذه التغطية إلى النفوذ السياسي للأشخاص والمؤسسات التي تتولاها وليس بالضرورة إلى صدقها أو دقتها" (إدوارد سعيد، 2005، ص330)، فبعد مرحلة النظر والدراسة الأكاديمية تأتي مرحلة التطبيق التي يتبناها السياسي في أرض الواقع ويجعل منها أمرا متحققا فعلا، إن السياسي في العالم الغربي هو الذي يتبني النظريات والخطابات الإستشراقية حول الإسلام ويجعل منها خدمة لأغراضه وأهدافه دون محاولة فحص النتائج التي يمكن أن تُسفرَ عنها وبالتالي فالأمر يعود في نهايته إلى قرارات سياسية وليس إلى غرض أكاديمي أو علمي.

وكما يبين إدوارد سعيد في مؤلف "تغطية الإسلام" أن "الأساس الفكري الذي يقوم عليه كتاب الإستشراق هو الارتباط الوثيق بين المعرفة وبين السلطة أو القوة" (إدوارد سعيد، 2005، ص26)، ويفسر طبيعة العلاقة بين القوة والمعرفة ويبين أن وظيفة الإستشراق هي وظيفة سياسية خدمة للسياسة الاستعمارية والهيمنة الإمبريالية، لكن الأساس النظري لهذه الفكرة يعود إلى الفيلسوف الفرنسي مشال فوكو (1926–1984) في تحليله لنظام الخطاب بقوله أن هناك علاقة بين المعرفة والسلطة، لأن كل معرفة تحمل في خطابها نوعا من القوة والسلطة المؤسسة على علاقات الهيمنة والقوة، ولكن تفكيك إدوارد سعيد لبنية الخطاب الإستشراقي يختلف عن المنظور البنيوي عند مشال فوكو، لأن الخطاب في موضوع الإستشراق ليس نظرية وإنما هو أحداث فعلية وموضوعية، يقول سعيد "أما في الإستشراق فلم أتحدث بتاتا عن الخطاب مثلما فعل فوكو مثلا في علم آثار المعرفة وكأنها شيء له حياته الخاصة ويمكن مناقشته خارج إطار العالم الواقعي أو ما أسميه العالم التاريخي، أعتقد أن حد الأمور التي أفتخر بها أكثر من غيرها ربما هو أني أحاول تسيير الخطاب يدا بيد مع رواية الاستيلاء وتشكيل أدوات الهيمنة وتقنيات المراقبة التي لم تكن جذورها في النظرية بل على أرض الواقع" (إدوارد سعيد، 2008، ص264)، وهنا نجد أن الشيء الذي يحتفظ به إدوارد سعيد من نظرية مشال فوكو هو فكرة ارتباط المعرفة بالقوة والسلطة

دون تبني الموقف الفوكوي في تأسيس خطاب نظري حول السلطة والسياسية، لأن ما يهمه في موضوع الإستشراق هو الجانب العملي أكثر من البعد النظري له أي النظر إلى نتائج تطبيق الخطاب في الواقع العملي الاجتماعي والسياسي.

إن تحول الخطاب الإستشراقي إلى هيمنة غربية من نوع خاص فرض في مجال العلم والتقنية سياسة التبعية لدول وبلدان الشرق والعالم الإسلامي إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القطب العالمي المسيطر على مجال العلاقات بين الشرق والغرب، و"حين ننظر في ارتباطات الولايات المتحدة ببقية أرجاء العالم، فإننا بصدد الارتباطات تحديدا –لسنا خارجها أو فوقها ذلك يوجب علينا كمثقفين وإنسانيين ونقاد علمانيين أن نفهم دور الولايات المتحدة في عالم الأمم والجبروت من داخل الواقعة وكمشتركين فيها لا كمراقبين خارجيين معزولين" (إدوارد سعيد، 1996، ص81)، ذلك أن الثقافة الشرقية والإسلامية بقيت ثقافة معزولة ومهمشة نتيجة تغييب ذاتها في مجال القرارات العالمية، ولأن منطق صنع القرار يفرض وجود مستوى من التقدم في مجال العلم والتقنية والتصنيع ومستوى من الوعي السياسي والاقتصادي وهو ما تفتقده معظم دول العالم الشرقي والإسلامي.

إن السبب الكامن وراء تنامي ظاهرة الإستشراق وتحولها في بلدان العالم الإسلامي إلى سيطرة سياسية واقتصادية هو ما يعانيه العالم الإسلامي ذاته من عجز على مستوى التصنيع وتأخر في المجال التقني والتكنولوجي، يقول إدوارد سعيد "أعتقد أن عددا كبيرا من البلدان الإسلامية في غمرة اندفاعها نحو التصنيع والتحديث والتنمية قد استجابت وبدرجة أكبر من ما ينبغي أحيانا لإغراء التحول إلى أسواق استهلاكية، وأما دحض أساطير الإستشراق وصوره النمطية فيقتضي من أجهزة الإعلام ومن المسلمين أنفسهم أن يتيحوا الفرصة للعالم كله لرؤية المسلمين وأبناء الشرق وقد أصبحوا منتجين لا مستهلكين فقط" (إدوارد سعيد، 2005، ص170)، لأن التفوق الصناعي والتكنولوجي والعلمي هو الذي يمكنه أن يعيد للعالم الإسلامي صورته التي شوهها الإستشراق، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى تكاثف الجهود بين دول وبلدان العالم الإسلامي بدل الاستسلام للاختلافات الإيديولوجية والسياسية التي عطلت كل جهود التقدم والتطور الحضاري.

وما يؤكد أن الخطاب الإستشراقي اكتسب قوته وصلابته النظرية من ضعف الخطاب الشرقي ذاته هو الاهتمامات المتكاثفة والمكثفة التي يوليها العالم الغربي لدراسة الشرق بالإضافة إلى التطور الكبير الذي وصل إليه في مجال العلم والمعرفة والتي جعلته يتحكم في زمام الأمور في

المجال السياسي والاقتصادي والتي تتوج ما وصل إليه الغرب من بحوث علمية في الكثير من مجالات العلم والمعرفة، "إذ لا يملك باحث عربي أو إسلامي أن يتجاهل ما ينشر في الدوريات العلمية ولا ما يحدث في المعاهد والجامعات في الولايات المتحدة وأوروبا والعكس ليس صحيحا فعلى سبيل المثال لا توجد دورية علمية كبرى للدراسات العربية تنشر في العالم العربي اليوم، كما لا توجد مؤسسة تعليمية عربية قادرة على تحدى جامعات مثل أوكسفورد وهارفارد وجامعة كاليفورنيا في لوس أنجيليس في دراسة العالم العربي، وتقل قدرة المؤسسات التعليمية العربية على ذلك في مجال الدراسات غير الشرقية" (إدوارد سعيد، 2006، ص490). إن القصور في الجانب العلمي والمعرفي في العالم الشرقي هو الأساس الذي خول للعالم الغربي من أن يتحكم في الشرق، لأن المعرفة قوة وسيطرة والتبعية المعرفية والعلمية ينتج عنها لا محالة تبعية سياسية واقتصادية وحضارية بعامة.

وكما يزعم المستشرق ماكدونالد وجيب "يتخذ الإسلام والشرق مكانة خارج الواقع الفعلي ومكانة مختزلة من الناحية الظاهراتية، أي من ناحية وجودها في الوعي وهي التي لا يستطيع إدراكها إلا الخبير الغربي وحده، فمنذ بداية التأملات الغربية في الشرق والشرق لا يعجز إلا عن تمثيل ذاته، فالأدلة الخاصة بالشرق لا تقبل التصديق إلا إذا صهرتها نيران عمل المستشرق وطهرتها من الشوائب فأكسبتها الصلابة" (إدوارد سعيد، 2006، ص433)، إن الشرق في نظر ماكدونالد وجيب عاجز عن تمثيل نفسه من ناحية الفكر والثقافة وعاجز عن فرض نفسه في مجال الواقع الفعلي، ولذلك اتخذ الخطاب الإستشراقي من هذا العجز مبررا له في تمثيل الشرق وبالتالي خول الغرب المستشرق لنفسه إنتاج خطاب حول ثقافة الأخر الشرقي من منطلق ما يراه ويتصوره الفكر الغربي لا غير، فالخطاب الإستشراقي حول الشرق لا يمثل الشرق بالضرورة بل هو تمثيل للغرب ولما يريد أن يفرضه على الشرق والإسلام.

ولكن الصورة التي يسوقها الغرب عن الإسلامي لا تمثل حقيقة موضوعية بذاتها، لأننا نجد في جزء منها مظهرا من المظاهر التي يساهم فيها العالم الإسلامي نفسه، لأن "الإستشراق يستمد قوته من ضعفنا ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفته ذاته، فالإستشراق في حد ذاته كان دليل وصاية فكرية" (أحمد عبد الحليم، 1996، ص60)، كما أن الموقف الغربي المعادي للإسلام له في العالم الإسلامي اليوم ما يبرره وهو ما لاحظه الغرب في العالم الإسلامي من تأخر ثقافي وحضاري وما ظهر في المجال السياسي من غياب للديمقراطية الحقيقية وضعف

الإنتاج الاقتصادي والصناعي، ولكن هذا التعميم لا يمثل في حقيقة الأمر الإسلام، لأن هناك فرق بين الإسلام كدين وعقيدة، وبين أفعال وسلوكات المسلمين.

كما أن أغلب دول العالم الشرقي تعاني من غياب الديمقراطية في المجال السياسي، ولكن "الأمم الغربية ما إن يبدأ ظهورها في التاريخ حتى تظهر بدايات قدرتها على الحكم الذاتي، (...) ثم أنظروا إلى تاريخ الشرقيين برمته فيما يسمى بصفة عامة الشرق ولن تجدوا أثارا تنبئ عن الحكم الذاتي إطلاقا. إذ مرت كل قرونهم العظمى في ظل الحكومات الاستبدادية والحكم المطلق. كما كانت كل إسهاماتهم الحضارية العظمى في ظل ذلك اللون من الحكومة، لقد تلا الفاتحون بعضهم البعض وجاءت سيطرة في إثر سيطرة، لكنك لن تجد في شتى دورات الأقدار والحظوظ مطلقا أمة من تلك الأمم تنشئ من تلقاء ذاتها ما نسميه نحن من وجهة نظر غربية الحكومة الذاتية" (إدوارد سعيد، 2006، ص86)، إن غياب الحكم الذاتي في دول وحكومات الشرق عبر تاريخها يكشف عن غياب الديمقراطية كما نجدها في العالم الغربي وعن غياب الوعي وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي.

4- نقد الفكر الإستشراقي في كتابات إدوارد سعيد:

لقد تعرض مؤلف الإستشراق لإدوارد سعيد لعدة انتقادات سواء من طرف الشرقيين أو من طرف الغربيين أنفسهم، وقد بين إدوارد سعيد نفسه أن كل ما كتبه عن الإستشراق تعرض للهجوم من قبل الأكاديميين الأمريكان والبريطانيين بشراسة شديدة ولا هوادة فيها بسبب نزعته الإنسانية .(Edward w.Said, 2003, p367)

لكن إدوارد سعيد يضيف في طبعته الثانية للمؤلف تذييلات عن وقع كتاب الإستشراق في العالم الغربي والعربي معا ويعيد توضيح بعض المسائل الغامضة منها وما تلقاه المؤلف في طبعته الأولى من نقد سواء من حيث القبول أو الرفض (إدوارد سعيد، 2006، ص86)، إذ يبدو أن هذا المؤلف حمال للكثير من المعاني والدلالات المختلفة، غير أن هذا الاختلاف لا يجب فهمه على أنه غموض في الفهم والمعنى بقدر ما يمكن فهمه على أنه مزية تفتح أفق النص وتجعله ثريا ومنفتحا على أفق التأويلات الدائمة والمستمرة.

إن النتيجة التي خلص إليها إدوارد سعيد هو أن الخطاب الإستشراقي يعاني من عجز في مستويين: أولا على المستوى الأخلاقي والإنساني كونه يفرق بين الشعوب والمجتمعات انطلاقا من

التمييز العنصري والعرقي والجغرافي، وثانيا على مستوى التنظير الفكري له والذي يستمد أصوله من نزعة ذاتية للفكر الغربي، إن "فشل الإستشراق فشل إنساني بقدر ما هو فشل فكري إذ إنه حين دفع دفعا إلى اتخاذ موقع معارضة لا يمكن اختزاله إزاء منطقة من مناطق العالم يعتبرها أجنبية غريبة عنه، قد عجز عن التعاطف أو التوحد مع الخبرة البشرية بل وعجز عن إدراك أنها خبرة بشرية" (إدوارد سعيد، 2006، ص497)، وانطلاقا من هذا لم يلقى الخطاب الإستشراقي القبول من طرف الشرق ذاته الذي يمثل محور وموضوع هذا الخطاب، لأنه اختزل موضوعه (الشرق) في ظواهر جزئية ونظر إليها نظرة متفرقة لا تمثل حقيقة بعينها، بل أراء وأفكار إيديولوجية كان نتيجتها فرض منطق القوة والهيمنة والسلطة والسياسة، كما أن الخطاب الإستشراقي عاجزا عن التطور بسبب تمسكه بمواقفه الثابتة عن الشرق.

لكن لا يمكن القول أن كل الدراسات الإستشراقية كانت مشحونة بدافع الإيديولوجية أو أنها تأسس كلها على نظرة غير موضوعية للشرق والإسلام، بل في بعض الأحيان نجد أنها كانت موضوعية ومنصفة للحقائق التاريخية حول الشرق، ويذكر لنا إدوارد سعيد أنه من بين البحوث الإستشراقية الموضوعية التي تتسم بالولاء للبحث العلمي مثل "تلك الدراسة الأنتروبولوجية التي قدمها كليوفورد جيرتز، فاهتمامه بالإسلام يتميز بدرجة كبيرة من الاستقلال والطابع العلمي، وهو ما يمكنه من استلهام روح المجتمعات والمشكلات المحددة التي يدرسها بدلا من الارتكان إلى طقوس الإستشراق وتصوراته المسبقة وعقائده الراسخة" (إدوارد سعيد، 2006، ص494)، إن كل دراسة إستشراقية تنطلق من أفكار وافتراضات مسبقة حول الشرق نجدها تؤول وتفسر الشرق على حسب ما يبدوا لها وليس على حسب ما كان وما وقع بالفعل أو على حسب الحقائق التاريخية التي حصلت بالفعل في الواقع الموضوعي، وفي دراسة كليفورد جيرتز نجد أن الموضوع الذي يتأسس حوله الخطاب خال من كل تحيز عرقي أو مذهبي مسبق أو أي تمثيل للذات الغربية كما فعل بقية المستشرقين.

أما عن النقد الذي يوجهه إدوارد سعيد للخطاب الإستشراقي فيمكن القول أنه لا يعبر عن إيديولوجية مضادة لمواجهة المستشرقين والدفاع عن الإسلام أو الشرق عامة، لأن هناك تنوعا واختلافا في فهم المرجعيات الثقافية والدينية والسياسية للعالم الشرقي، وكما يؤكد إدوارد سعيد أن حجته "بعيدة عن أن تكون دفاعا عن العرب أو الإسلام كما فهم البعض كتابي، نهضت على القول أن العرب أو الإسلام لم يوجد إلاَّ كجماعات تأويل يسبغ عليها التأويل وجودها، وإن التعيين

مثلا. كما هو حال الشرق –جملة مصالح ومزاعم ومشاريع ومطامح وحالات بلاغية لم تكن في تنازع عميق فحسب، بل كانت في حالة حرب مفتوحة أيضا" (إدوارد سعيد، 1996، ص38)، ومن ثم لا يمكن أن تكون دراسة إدوارد سعيد دفاعا عن لون من ألوان السياسة أو الثقافة بقدر ما هي تأكيد وجود تنوع واختلاف في كل ما يزعم أنه يخضع لوحدة أو أنه يمكن دراسته بمعزل عن الشروط الاجتماعية والتاريخية التي تكون فيها، فالعرب والمسلمين والعالم الشرقي عامة تشكل في فضاء من التأويلات والتفسيرات المختلفة وكذا المرجعيات المتعددة إضافة إلى أن هناك اختلافات حول المصالح والمكاسب في المجال السياسي والاقتصادي.

خاتمة:

إن ما يمكن استنتاجه هو أن دراسة إدوارد سعيد للمنظور الإستشراقي عن الإسلام لم تكن بدافع الدفاع عن الإسلام أو في تمجيد وتقديس تعاليمه، بل بدافع فهم الإسلام وتصفيته من كل التفسيرات الخاطئة التي لحقته تاريخيا، لأن هدفه من دراسة الموضوع ليس الدفاع عن الشرق أو عن الإسلام بشكل عاطفي مباشر أو الرد على الخطاب الإستشراقي من خلال تبني ثقافة شرقية أو ثقافة إسلامية وإنما هو الكشف عن حقيقة الخطاب الإستشراقي وبيان تداعياته وامتداداته في المجال المعرفي والسياسي من منطلق محايد وبشكل موضوعي دون السقوط في التأويلات المتعسفة أو الافتراضات القبلية الغير مؤسسة، وهكذا فإن مهمة المثقف المسلم ينبغي أن تتجاوز الردود العاطفية أو الدفاع عن الإسلام دون محاولة فهم الإسلام ذاته، لأن الإسلام شهد في تطوره التاريخي عدة متغيرات غيرت الكثير من التصورات التي جاء من أجل إثباتها وبدون الفهم الصحيح للإسلام تبقي أي محاولة للدفاع عن الإسلام غير مبررة وغير مشروعة.

لكن في حالة المنظور الإستشراقي عن الإسلام فإن العودة إلى التراث الإسلامي كرصيد تاريخي يمثل هوية الثقافة الإسلامية ذاتها لا يمكن أن تكون حلا لمواجهة الخطاب الإستشراقي المشبع بأحدث المناهج العلمية الحديثة، يحتاج المثقف المسلم إلى تبني مواقف معارضة في مستوى الخطاب العلمي الذي اعتمده الغرب أو تتجاوزه حتى يمكن مواجهة سلبيات الإستشراق. إن الدور الحقيقي الذي يجب أن يتبناه المثقف المسلم هو أن يعارض وليس أن يكون ضد هذا أو ذاك من الخطابات الغربية أو الأيديولوجيات والسياسات التي تتبناها، وأن يعارض معناها أن يعيد الثقة في العقل وأن يمنحه القدرة على المواجه والرفض والنقد.

كما يتبين أن تفكيك إدوارد سعيد لبنية الخطاب الإستشراقي والكشف عن أبعاده وأهدافه لا تعني بالضرورة أنه يؤسس لخطاب إسلامي جديد يقف ضد الخطاب الإستشراقي، كما لا تعني من جهة أخرى أنه يدافع عن الحال الذي آل إليه العالم الإسلامي أو أنه يتبنى الصورة التي هو عليها اليوم، بل أنه يرى أن ما وصل إليه العالم الإسلامي لا يمثل الصورة الحقيقية التي ثبتها الإسلام ذاته والشاهد هو انعدام الحريات الشخصية وغياب الديمقراطية والتأزم الثقافي والحضاري الذي تعاني منه مختلف شعوب العالم الإسلامي اليوم.

- مصادر ومراجع البحث:

- بالعربية:

1- إدوارد، سعيد- برنارد، لويس، (1994)، الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، بيروت، دار الجيل.

2- إدوارد، سعيد، (2006)، الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، 1995، بيروت، دار رؤية للنشر والتوزيع.

3- إدوارد، سعيد، (2007)، الثقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، بيروت، دار الآداب.

4- إدوارد، سعيد، (2008)، السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، بيروت، دار الآداب.

5- إدوارد، سعيد، (2000)، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، دار إتحاد الكتاب العرب.

6- إدوارد، سعيد، (1998)، القلم والسيف، ترجمة: توفيق الأسدي، دمشق، دار كنعنان.

7- إدوارد، سعيد،(1996)، تعقيبات على الإستشراق، ترجمة: صبحي حديدي، بيروت، الدار العربية للدراسات والنشر.

8- إدوارد سعيد، (2005)، تغطية الإسلام، ترجمة: محمد عناني، بيروت، دار رؤية.

9- إدوارد، سعيد، (1996)، صور المثقف، ترجمة: غسان غصن، بيروت، دار النهار.

10- فخري، صالح، (2004)، حوارات مع إدوارد سعيد، ترجمة: فخري صالح، دمشق، دار كنعان.

11- عبد الحليم، السايح،(1996)، الإستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية.

- بالفرنسية:

1- Edward, Said, (2003), L’orientalisme, l’ orient créé par l’ occident, traduit de l’américain par Catherine Malamud. Paris.

2- Hamza, Asshidi, (2015), L'Orientalisme d'Edward Said: r_ecit et modalit_es d'un transfert culturel entre les _Etats-Unis et la France, Histoire. Paris.

3- Mohammad, Imara, (2013), Les objectifs de l'orientalisme, Article lu 7156 fois.
4- Monia, ayachi, (2015), l'orientalisme théorie de l'invention de l'occident et stratagèmes l'éclipse de l'orient, mémoire présenté comme exigence par tielle de maitrise en sociologie université du que Québec a Montréal.
5- Mohammad Imara, (2013), Les objectifs de l'orientalisme, lire le: 25/12/2018. H 15:13, www.ism-france.org/analyses/Les-objectifs-de-l-orientalisme-article-18193.
6- Clémentine Kruse, (2012), L'orientalisme au XIXème siècle, lire le: 25/12/2018.H12:03.www.lesclesdumoyenorient.com/L-Orientalisme-au-XIXeme-siecle.html.